العلوم

هل للعلم قيود تفرضها الاخلاق؟

للدكتور هنسن أسقف درهام بانجلترا
ترجمها بتصرف الدكتور احمد زكى
(تتمـــة)

« قيد الكاتب البحث العلمى فى المقال السابق بقيود ثلاثة . أولها الواجب الذى تفرضه الاخلاق على دارس العلم بحكم رجولته ، وثانيها شروط تحتمها حقوق أولئك الذين تقع عليهم التجربة العلمية ذاتها ، وثالثها أمور يفرضها نوع النتاج المقصود من التجربة »

القيد الأول

أما فيما يختص بالقيد الاول فلا حاجة بنا فيه الى الافاضة الكثيرة . ان البحث العلمى يتطلب المزاج العلمى ، وان يباشره الباحث باخلاص للحقيقة ، وولاء مطلق لها ، واغفال تام لصالح الباحث ونفعه الشخصى ، واستسلام صريح للعمل المضنى ، واحتمال غير شاك للآلام فى سبيل الطلب

ورجل العلم لا يدعى حظا من العلم أكبر مما بين يديه ، ولا يحاول أن يُفيد من جهل الجمهور بعلمه ومن ثقة اعتاد أن يوليها العلماء ضرورة أو اختيارا ، وهو لا يستخدم سلطان العلم فيما يحط ويزرى ، ويعمل كل هذا لأنه واجبه الواضح البيّن باعتباره انسانا ، ولأنه فى علميته لا يستطيع أن يتنصل من انسانيته ، فمُثُل الانسان العالية هى مُثُل العـــالم العالية ، والغايات النبيلة لهذا هى عينها غايات تلك ، وموقف الاثنين جميعا من الواجب العام هو الذى حدّث عنـــه غلادستون حين قال : « أنا لا أبالى ان أسأل كم فى الناس من سَقَط ، وكم فيهم من حُثالة هربت من الاخلاق فحاق بها ما حاق ... وانما انا اعتقد ان الواجب قوة حيّة . تصحو معنا فى الصباح ، وترقد معنا فى الليل ، وتصحب كل عمل يصدر فى يقظاتنا عن ذكائنا الانسانى . الواجب ظل يتبعنا اينما سرنا فى مدارج الحياة ، ولا يتركنا الا عندما نُغمض الجفن الى الابد عن نور هذه الشمس »

ان اخضاع العـــلم للأخلاق بهذا المعنى مبدأ اعترفت به الدنيا قديما وأمنت عليه القرون . وضع أبقراط (١) حَلِفه المشهور وحدّد به مسلك الطبيب ، واحترمته الاجيال على السواء ، فاحترمه العرب المسلمون ، واحترمه اليهود ، واحترمه المسيحيون ، ولا يزال الى يومنا هذا أول عمل يأتيه الطبيب قبل ممارسة طبه . وهو عهد لا يختص به علم الطب وحده ، فكل شعبة من شعب العلم لا شك تقبل المبدأ الذى عبّر عنه أبقراط بهذا النبل ، وتجل ما يتضمنه من هيمنة الخُلُق على جميع مناشط الانسان .

القيد الثانى

الى هذا الحد ليس هناك خلاف ، فليس من ينكر ان العلم لا يستطيع تحرير رجاله باعتبارهم أناسى من الشروط الاخلاقية التى تضبط سائر الرجال والتى بدونها تضيع ثقة الناس بالناس . ولكن عندما ننتقل من رجل العلم الى طريقته ندخل ارض الفتاوى والمحللات ، وهى دائرة يكثر فيها الجدل ويطول الحجاج ، وهنا قد يسرف العلم ويغلو كما أسرف الدين من قبله وغلا . فالعلم الحديث يشغل من الدنيا الحديثة مكانا أشبه بالمكان الذى كان يشغله الدين فى العصور الوسطى من الدنيا القديمة ، ففى تلك العصور كان التفكير الانسانى ينبت

(١) ابقراط طبيب أغريقى اسمه ابا الطب عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وحلفه المشار اليه بعد يؤخذ به خريج الطب فى بعض الجامعات الى الآن بالا يفشى الطبيب للمريض سرا مهما كلفه ذلك

فى ارض طينتها دينية ، وهى اليوم طينة علمية . كان هوى الناس فى الدين وكان تقديسهم لقساوسته ، فصار اليوم هواهم للعلم وتقديسهم لاساتذته . ومن طالب الدليل على ذلك وجده فى الذوق العام ، فعظات الاحبار لاتقرأ الا قليلا ، وكتب رجال العلم المبرزين تشترى بكثرة وتطالب لهفة

وهنا يتساءل المرء ، وقد نزل الدين عن عرشه للعلم ، أيخضع هذا المتوج الجديد للغواية كما خضع المتوج القديم . وهل يستدرج استدراجه ليؤول الى مثل مآله . ليس فى التاريخ ماهو آلم من تاريخ « الافتاء » فى النصرانية ، ولا أزرى منه ولا أكثر تحييرا وإربا كا . وهو مع ذلك موضوع للتأمل خصيب

انه ملىء بمناقضات من الجسامة بحيث لا يتصورها العقل . انحى القديس بول على الفتوى التى تقول « دعونا نفعل الشر ليكون منه الخير » ومع هذا لم يؤثر هذا الانحاء شيئا فى أفعال القسيسين ولا فى نظريات الاخلاقيين ، وكان كل سؤالهم « فى اى الظروف والى اى حد يجوز لنا فعل الشر ليحصل منه الخير ؟ »

هل يكون من العلماء يسوعيون كما كان من أهل الدين يسوعيون ؟ وهل يكون لهؤلاء ناقد ساخر فى القرن العشرين كما كان لأولئك فى شخص بلايز باسكال Blaise Pascal فى القرن السابع عشر ؟ كان من مبادئهم ان لا عهد لمرطيق ، ولا ذمام لزنديق ، وان الكذب والتزييف مباحان فى سبيل حماية العقيدة وانتشارها ، وان التعذيب والقتل مشروعان فى صالح الكنيسة — هذه ومبادىء أخرى قبلها رجال مسيحيون استحلوا بها اشنع الجرائم التى سجلها مداد واحتواها قرطاس

فهل يتطور العلم فى هذه الناحية مثل ماتطور الدين ؟ هل يسيطر الاعتبار الخلقى على الطريقة العلمية ، أم هل يتغلب صالح العلم المزعوم على هذه الاعتبارات جميعا ؟ هذا هو المحور الذى يدور عليه كثير من النقاش الذى يمس التجارب العلمية الحديثة ، ومنها تشريح الحيوان الحى الذى كثر اللغط فيه وتطاول الحجاج فى السنوات الاخيرة . قال قوم انه عمل حلال أمن عليه القانون واطمأن فيه الى ان العلماء انما يأتونه خدمة للمعرفة ، وقال آخرون انه عمل محرم ، تحرمه الانسانية لانه يتضمن ألما لحى ، وقال غير هؤلاء : ان تحليله وتحريمه موطان بمقدار الالم الذى يعانيه الحيوان . والحق ان المسألة لها طرفان اولهما يتعلق بالغرض الذى من اجله يجرى التشريح . وثانيهما يتعلق بالحى الذى يشرح . اما الغرض فيجب أن يكون من الكفاية بحيث يتزن مع التضحية ويستأهل الآلام . جميل أن نصيح « أن العلم للعلم » ، ولكن هل نقبل هذه الجملة على أطلاقها أم لابد من الحذر الشديد عند تطبيقها ؟ أى المعارف يجب أن نقصد اليه ، وهل كل معرفة جديرة بالعرفان ؟ يفرق الاستاذ « وايتهد » بين الطالب يطلبه المرء فى سبيل العلم . والطلب يطلبه حلا لقضية رخيصة أخطرها بالبال الخيال السائب اللاهى . أما فيما يتعلق بالحى الذى يشرح ، بالحيوان الأعجم الذى ينطق ، فأمره يتوقف على النظرة التى ينظرها به الانسان . وهنا نجد العلم الحديث نفسه سلح أعداءه فى هذا الصدد بسلاح قاطع ماض . فان البيولجة الدروينية أزالت الحاجز الذى وضعته الفلسفة بين الانسان والحيوان ، واعتبرت الحياة العضوية ظاهرة فردة واحدة مهما اختلفت اوضاعها وتعددت مظاهرها ، وبهذا استوى الانسان بالحيوان أو قارب ، وبهذا جاز على الانسان مايجوز على الحيوان ، والانسان يأبى تشريح الانسان حيا ، فلا بد أن يأبى تشريح الحيوان حيا . أم هو يجيز التشريح على اطلاقه ثم يتنصل منه باعتبار ان الانسان له « شخصية » تكسبه حقوقا لاتكون لغيره من الحيوانات لانعدام (الشخصية) فيها .

ان الغرض مهما طاب ومهما خطر لا يبرر التجربة التى تخل بمسلك الانسان الخلقى .

حكوا فيما يحكى عن الامبراطور فريدريك الثانى انه دعا رجلين الى الغداء وأطعمهما حتى امتلأا ، وبعث بأحدهما لينام ، وبعث بالآخر ليصيد ، وفى المساء أمر فشق بطناهما ليعلم أيهما أسرع هضما ، آلذى نام فاستراح ، أم الذى ظل نهاره يجرى وراء الصيد ؟ وقضى أطباؤه بالفوز للذى نام . لا يقول أحد ان رغبة فريدريك فى المعرفة لم تكن مشروعة ، ولا أن اتجاهه الى تحقيقها بالتجربة العلمية لم تكن محمودة ، ولكن الذى يدم ان التجربة لم تخضع لشروط المسلك الخلقى العام

قرأت حديثا مقالا افتتاحيا فى (مجلة تحسين النسل) Eugenics Review تناول فيها محررها موضوع الدعوى الحديثة فى استكشاف طريقة علمية جديدة يتعين بها النسل قبل ولادته. فبعد ان تشكك الكاتب فى المكتشف قال:.. ومهما يكن من الامر فلا بد ان نتهيأ لأن نسمع يوما ما بأن قد انكشفت طريقة صحيحة مؤكدة للتنبؤ بالنسل أو التحكم فيه. فان وقع هذا، وهو لابد واقع وان تأخر يومه، فقد وقعت اكبر ثورة فى تاريخ البشر، فعندئذ يتجه الناس لامحالة فى الانسال اتجاها يخل التوازن بين الذكر والانثى اختلالا لن نختلف فى نوعه وان اختلفنا فى مقداره. فيصبح عدد الذكور عشرة أضعاف الاناث أو خمسة عشر أو عشرين ضعفا، وعندئذ كيف تكون الحال؟ لا أجسر ان أقول، ولا يجسر ذو الخيال الرائع أن يقول. وحسبنا أن نقدر أن أول ما يذهب من مُثُل الانسان عفة المرأة وحرمة الزوجية، فهل من الحكومات حكومة تنظر الى الغد فتعد لهذا الانقلاب عدته؟ لعل أقرب من ذلك أن نرجو ان يتفق البيلجيون فيما بينهم، أن يتفقوا من الآن. على ان يحفظوا هذا السر عن الناس اذا هى تمخضت عنه الابحاث، لانه حدث سيكون أوخم عاقبة على المجتمع مما عرف من الاحداث. بالطبع ما من سر الا افتضح على الأيام، ولكن سيكون قد انقضت مهلة قبل افتضاحه قد تمكن اولى الأمر وذوى السلطان من رفع الحواجز واقامة السدود فى وجه هذا السيل الداهم

فلنفرض ان مايقوله المحرر حق، وان العلماء باتوا على مقربة من كشف هذا السر، وأن هذا السر اذا انكشف للناس فعلوا كالذى خاله الكاتب، فما يكون موقف العالم البيلجى عندئذ وما واجبه؟ اينصرف عن ابحاثه خشية ماتجره نتائجها؟ ايقف فى السبيل وقد قارب النهاية احتفاظا بالعفاف الجنسى، ام يقول ان المنشط العلمى من حقه ان يتحلل مما قد لا تستطيع أن تتحلل منه مناشط الحياة الأخرى، وأنه رجل علم فهو بمعصم من المبدأ القائل بأن الرجال مسئولون عن اعمالهم وما يصدر عنها من شر تأكد أو ترجح.

ان التقدم الحديث فى العلم يتجه اتجاهات لم تكن قديما فى الحسبان. حتى أن أكثر المفكرين تفاؤلا، وأسرعهم اجابة اذا دعا العلم، بدأوا يتشككون فى تفاؤلهم الكثير، ويراجعون فى فرضهم القديم، أن زيادة المعرفة لن يكون منها غير خدمة الانسانية. والسيطرة على الطبيعة لن يكون منها غير خير المجتمع. قال السير الفريد يونج Sir Alfred Ewing:

« إنذنوا لى كدارس قديم للميكانيكا التطبيقية أن أعبر عن بعض خيبة أحس بها الآن. وانانى اعتز الى منتحيا مع النظارة جانبا من الطريق اتفرج على موكب العلم يسير فى عظم وفخامة، وأتسلى مع المتسلين بركائب المخترعات تتعاقب فى أبهة وضخامة. الى أين يسير هذا الركب الكبير؟ وما أثره الأخير فى مستقبل الاسرة الانسانية؟.. لاشك أنه يحمل للانسان هدايا تجعل حياته أملأ وأوسع وأصح وأغنى وأهنأ، تلك الهناءة التى تجليها المادة الجامدة. ولكن كثيرا ما أهداه المهندس الباحث أسيء استخدامه ويُساء. وبعضه يحمل فى أحشائه مآسى لم تتمخض عنها الأيام بعد. إن الانسان لم يتهيأ بعدُ أخلاقيا ليتقبل تلك المنح الكبرى »

وجملة الامر ان العلم وبال على الانسانية اذا هو اطلق من القيود الأخلاقية التى تضبط مسلك الانسان بقصد اسعاده فردا ومجتمعا؟

العـــدد الاول

من الرسالة

انجزنا طبع العدد الأول للمرة الثالثة، فمن كان فى حاجة اليه فليطلبه رأسا من الادارة بالثمن المعتاد

السنة الأولى للرسالة

بهذا العدد تنتهى السنة الأولى لمجلة الرسالة. وقد كان فى نيتنا أن نختمه بفهرسين أبجديين لجميع أعدادها، أحدهما للموضوعات وثانيهما للكتاب ولكن الوقت ضاق فأرجأناه الى العدد القادم وسيكون ملحقا به منفصلا عنه ليسهل وضعه فى مكانه من المجموعة